فكاهات

رواية

قتيل القدر[1]

في آخر شهر ستمبر من سنة ١٨٥٠ وصلت الى مدينة بوردو سفينة اميريكية اسمها « المقدور » قادمةً من مدينة نيويرك وعليها ثلاثة عشر مسافراً وهي موسوقة بضائع برسم محل ولنغام وشركآئهِ في بوردو . وقد عانت هذه السفينة خلال سفرها اهوالاً جمة وغرق من ركابها ثلاثة وكان في جملة المسافرين فيها فتىً يدعى جونس روبرت ثرتين لهُ من العمر ٢٥ سنة وهو حلو الملامح بهيّ الطلعة ولكنهُ نحيلٌ هزيل وجملة هيئتهِ تدل على ان شبيبتهُ كانت مملوءةً بالهموم والاحزان . وعندما ألقت السفينة مرساتها نزل روبرت الى البرّ وسار الى الفندق الذي حدثت فيهِ بعد ذلك التاريخ ببضعة اشهر اول اصابة من اصابات الهيضة الوبآئية التي فتكت بمعظم سكان بوردو وبعد ايام اكترى حانوتاً واقام يتعاطى صناعة التصوير

وكان ولنغام المتقدم ذكرهُ من اكابر تجار المدينة ومن اصحاب السفن التي تسافر بين بوردو ونيويرك وهو اميريكي الاصل يبلغ من العمر نحواً من خمسين سنة وكان قد اتى بوردو سائحاً فاعجبتهُ فأقام بها ونقل اليها تجارتهُ

(١) معربة عن الفرنسوية بقلم خليل افندي الجاويش

واشترى قصراً جميلاً بظاهر المدينة تجاورهُ تلالٌ خضرآء وتحدق بهِ روضةٌ غنآء وامامهُ صفّةٌ واسعة تظللها الدوالي وتطلُّ على نهر صغير ينساب السياب الافعوان بين مروج كالزمرُّد وأراضٍ موشاة بالوان الزهر والريحان . فاقام بهذا القصر ممتعاً بجميع اصناف السعادة وبعد مدةٍ رأى في ديرٍ للراهبات فتاةً رائعة الحسن عمرها ست عشرة سنة فمال اليها وأسرهُ سحر عينيها فاقترن بها واقام معها بقصرهِ وولدت لهُ بنتاً سماها جوليا فتمت بها سعادتهما وعكفا على تربيتها وتهذيبها . وان هذه الابنة لما بلغت السنة الخامسة عشرة دهمها مرضٌ عضال نغص عيش والديها وحير الاطبآء في علاجهِ وصير ذلك القصر اشبه بصومعة الناسك لا يؤمّهُ سوى الفقير وابن السبيل لما اشتهر من كرم الزوجين وميلهما الى مؤاساة اهل الشقآء . وعند ما وصل روبرت الى بوردو كان الوالدان قد يئسا من شفآء وحيدتهما العزيزة فزيّن الحب الوالدي لهما ان يصطنعا صورة لها تبقى عندهما بعد مماتها تذكاراً يتعزيان بهِ وان كان مؤلماً . وكانا قد سمعا بانهُ قدم البلدة مصوّرٌ ماهر وهو روبرت فاستدعياهُ الى القصر وتلقياهُ بالحفاوة والبشاشة وكانت الفتاة ملقاةً على كرسيٍّ طويل مصنوع بشكل عربة تُجَرُّ عليها وتنزّه في غالب ساعات النهار وهي غارقة في الفرو فرأى المصوّر فيها مع شدة اصفرارها ونحولها جمالاً باهراً وتبين في ملامح والديها آثار حزنٍ عليها كحزن يعقوب على يوسف . وبعد قليلٍ جلس المصوّر تحت شجرة تين وارفة الظلال ومعهُ ادوات الرسم كلها فجيء اليهِ بالفتاة في عربتها وهي كالنائمة وجلس والداها بقربها وجعل روبرت يرسمها بسرعة مخافة ان يسطو الردى عليها قبل ان يتم رسمها . ثم سألها بلطفٍ

ان تفتح عينيها وتوجه نظرها اليهِ فاطاعت ولما ووقع بصرها عليهِ ارتجف بدنهُ كأن لواحظها النواعس ايقظت عواطفهُ النوائم واجرت في مفاصلهِ شبه سيالٍ كهربآئي . اما الفتاة فامتزج اصفرار وجهها بلونٍ يشبه الجلّنار والتفتت الى والدها وقالت لهُ بصوتٍ ضعيف اني اراني اليوم اصلح مني في سائر الايام . فكاد والداها يطيران فرحاً لانها كانت منذ خمسة عشر يوماً لا تفتح عينيها لحظة ولا تفوه بلفظة وأيقنا أن الفتى هو الذي اثر فيها ذلك التأثير النفساني الغريب فسألاهُ ان يقيم عندهما الى ما بعد اتمام الصورة فاجابهما الى ما سألا . وهكذا فعل الحبّ في طرفة عين ما لم يفعلهُ الطب في سنوات

وكان روبرت عند ما برح مدينة نيويرك قد اخذ كتب وصاةٍ من بعض اكابر تجارها الى جماعة من تجار بوردو وفي جملتهم المستر ولنغام والد جوليا فعند ما وقع هذا الحادث وتوثقت اسباب المعرفة بين الرجل والفتى أراهُ الكتاب الذي برسمهِ فزاد ميلهُ اليهِ ووعدهُ بكل مساعدة يطلبها سوآء كانت مادية او معنوية فشكرهُ روبرت واثنى على كرم اخلاقهِ

وبعد مدةٍ صارت الفتاة قادرةً على ان تمشي في الحديقة مع والديها والمصوّر وعادت اليها عافيتها وعاودها نشاط الشباب فكانها انتفضت من كفنها او ملّ خيال الموت مجاورة بدنها . ولما طالت عشرة المصوّر لها انتهت بالحب الصحيح وكلف كلٌّ منهما بالآخر فراحا يصرفان الساعات بين جولانٍ في الحديقة وجلوسٍ تحت تلك التينة يتساقيان كؤوس الحب بالنظرات ويتبادلان عهود الغرام بالعبرات حتى اذا كانا ذات يومٍ تحت الشجرة لجّ بالفتاة داعي الوجد والهوى فاشارت اليهِ ان يخطبها الى والديها

وضمنت لهُ ان طلبهُ لا يُرَدّ فوعدها بان يفعل

وفي ذلك المسآء دعاهُ والد حبيبتهِ الى قضآء هزيعٍ من الليل في لعب الورق واختار لعبةً مجموع ارقامها ثلاثون فكان غالب اللعب ينتهي عند روبرت بعدد ١٣ فتشآءم واستعفى وقد تغير حالهُ وغلب عليهِ الوجوم. فقال لهُ الرجل نحن لا نلعب على نقود فلمَ اصابك هذا الابتئاس كلهُ يا عزيزي روبرت . فقال لو كنت تعلم تاريخ حياتي لعذرتني وقلت مسكينٌ هذا الفتى ولكن حسبي ان اقول لك انني لم اعمل عملاً في اميركا الا كان الفشل فيه حليفي والاخفاق البغي كأَن النحس لي توأم او كأَني واياهُ سوارٌ ومعصم . فقال دع عنك هذه الاوهام وتعالَ ازوجك بابنتي جوليا فتعيش معها على اسعد حال وتجد من نعيم الحياة ما ينسيك هذه الوساوس . فاجاب اني اكون بلا شك سبب شقآئها ومنفراً لطائر السعد عن ناحيتكم . ومما يؤكد لك ان النحس مقرون بطالعي انني لست فقيراً فيعرقل الفقر مساعيّ كما يحدث لاكثر الناس ولا انا قبيح الصورة فتصدّ عني النواظر وتنقبض مني النفوس حتى اكون مهملاً من الصديق والمساعد ولذا تحققت بعد ان قلّمت التجارب اظفاري مع صغر سني ان الغنى لا يجلب السعادة ولا السعادة ملازمة لارباب الثرآء بل رأيت ان غنايَ زاد شقآئي وسوءَ حظي وزاد متاعبي وهمومي . وآخر برهانٍ قام في ذهني على اني شقيٌّ عاثر الجـدّ هو ان السفينة التي اتيت عليها اسمهـا « المقدور » وقد اوشكت ان تغرق في عُرض البحار لشدة ما قاست من اهوال الانوآء والعواصف وكان عدد ركابها ثلاثة عشر وانا اسمي روبرت ثرتين (اي ١٣ بالانكليزية) ولا يخفى

ان هذا العدد دليل على الشؤم والنحس . فقال ولنغام اما ابنتي فلم يصبها من مصائب الدهر سوى هذا المرض وانت قد شفيتها منهُ بنظرةٍ فدلّ ذلك على ان النحس فارقك من يوم حللت بهذه المدينة وانا والحمد لله رجلٌ موسر استطيع ان اوفر لكما جميع معدّات الراحة والرفاهية

وبينما الرجل والفتى يتجادلان في هذا المعنى دخل خادمٌ وقال لقد اتى الكنت بلطازار . فقال صاحب المنزل دعهُ يدخل . ولما دخل ارتعش روبرت من منظرهِ لانهُ رجل طويل القامة ولون وجههِ اسمر الى السواد وحاجباهُ كثيفان وعيناهُ تقدحان شرراً . وهو من اشراف البرازيل وكبار اغنيآئها وكان لهُ علائق تجارية مع محل ولنغام فكان يكثر من التردُّد الى منزلهِ واخيراً كلف بحب جوليا فصار لا يلذ لهُ ان يقضي سهرتهُ في غير منزلها . وبعد لحظةٍ دخلت جوليا كانها البدر في ليلة تمّهِ فحيّت الجميع وجلست واقبل عليها الكنت يحادثها فصادف منها اعراضاً عن حديثهِ على غير ما تعود منها ووجد اكثر ميلها الى الفتى روبرت . فاخذت منهُ الغيرة مأخذها وظهرت على وجههِ لوائح الكمد والاستيآء وكان بعد ذلك كلما التقى بروبرت في المنزل تغير وجههُ وانقبض صدرهُ وقصّر سهرتهُ ما استطاع . ولما يئس من استمالة جوليا اليهِ خطبها الى والدها واطنب فيما عندهُ من الثروة وسألهُ ان يشفع لهُ عند ابنتهِ ففعل فاجابتهُ ان البرازيليين يُعَدّون من أكلة لحم الانسان فضلاً عن ان اسم الرجل بلطازار فلا استطيع ان اجلس معهُ على مائدةٍ واحدة . فتلطف والدها في ابلاغ الكنت خبر رفضها اياهُ فطار لبّهُ واسرع في مغادرة المدينة وخلا الجوّ لجوليا وحبيبها فألحّت عليهِ عندئذٍ ان

يخطبها كما وعد فقال قبل ان تصممي على الاقتران بي اسمعي قصتي

انا أُحبكِ حبًّا لا استطيع ان اعبّر عن مقداره ِولا اخالكِ تحتاجين الى البرهان على قولي لظهور بيناته ِعندكِ ولكنكِ اذا علمتِ ما ساقصّهُ عليكِ جانبتِني كما يجانب السليم الاجرب . اما قصتي فهي انهُ في مسآء يوم من ايام شهر مارس سنة ١٨٢٤ اتت امرأةٌ ملتفة بإِحرام وقرعت باب وليم طمسن بمدينة نيويرك ففتح لها عبدٌ اسود فدفعت اليهِ سفطاً مستطيلاً ثقيلاً واوعزت اليهِ ان يسلمهُ الى سيدهِ ثم انصرفت لشأنها . ولما فتح المستر طمسن السفط وجد فيه ولداً ورسالة من والدتهِ تقول فيها

« انا الولد الثالث عشر من اسرةٍ فقيرة وقد تحملت في بيت والديّ جميع انواع الهوان والاحتقار والاهمال وكانت شقيقاتي يلقينَ عليّ تبعة كل امرٍ مقلق يحدث في بيتنا ويوسعنني ضرباً ولكماً وكان اهلي كلهم يقولون اني انا سبب مصائبهم وفقرهم . واتفق ان والدي خسر ما كان عندهُ من المال القليل واصبح عاجزاً عن القيام بحاجات بيتهِ فتواطأ اخوتي عليّ وافتوا بطردي فرحت اهيم في شوارع المدينة لا اجد رحيماً يؤويني عندهُ ولا شفيعاً يستخدمني في منزلهِ وسمعت بعد ان طُردتُ أن والدي استردّ ما خسرهُ ودخل الهنآء بيتهُ . اما ولدي هذا فاسمهُ روبرت وقد ولد يوم الجمعة الموافق ١٣ فبراير فسميتهُ روبرت ثرتين وعلمت انك رجل شفيق كريم الاخلاق ندي الكف فاستودعتك اياهُ سائلة رب السمآء ان يجزيك عني خيراً وان يكلأهُ بعين عنايتهِ التي لا تنام »

ومن غرائب الاتفاق ان المستر طمسن المذكور كان صيرفياً غنياً

مشهوراً بعمل الخير وليس لهُ امرأة ولا ولد فربى ابن المرأة في مهد الترف وبعثهُ الى المدارس الكبرى ثم تبنـاهُ وقد توفي الرجل منذ ثلاث سنوات تاركاً كل ثروتهِ لهذا الولد الذي هو انا يا جوليا محبكِ المستهام. ولكن هذه الثروة ما كانت الا سبباً في شقآئي ومجلبةً لكل همٍّ وغمٍّ على رأسي وعباً ثقيلاً على ظهري والنحس لا يفارقني كيف سرت واين حللت كأني وُلدت عدوًّا للطبيعة او كأن الطبيعة تريد ان تخالف فيَّ احكامهـا ونواميسها مع اني ما اسأت في عمري الى احد بل كنت لا ارى مسكيناً الا احسنت اليهِ ولا حزيناً الا عزيتهُ ولا ملهوفاً الا اغثتهُ وقد علمني تذكار والدتي المسكينة ان امسح دموع الفقر والبأسآء

فصاحت جوليا كفى يا روبرت فان هذه الامور كلها ليست الاّ وساوس تأصلت في ذهنك لانك وُلدت مسكيناً وربيت في منزل رجلٍ غريب لا يستطيع مهما كان حنوناً ان يحبك نظير والديك فلا تحزن ولا تيأس ودعني ادبر الامر على ما اريد ولا تخبر والدي بما رويتهُ لي

وبعد ايام اخبرت جوليا والدها انها اختارت روبرت خطيباً لها فسرَّ والدها بذلك سروراً عظيماً وبعد مدة قصيرة زُفَّت جوليا الى روبرت وراحا كلاهما يسيحان في انحآء فرنسا ولم يقع لهما في اثنآء هذه السياحة شيء يسوء حتى ايقن روبرت ان النحس قد همّ بمفارقتـهِ. وبعد رجوعهما الى بوردو اقترح المستر ولنغام على روبرت ان يسكن مع زوجتهِ في منزل لهُ بالخلآء يبعد مسيرة ساعتين عن المدينة وهو يشرف على نهر الغارون وحولهُ غابات وغياض ومروج فكانهُ بينها عش طائر. فسار روبرت مع زوجتهِ

الى هذا المنزل البهيج واقاما فيهِ يجتنيان قطوف الحب دانيـةً بمعزلٍ عن كل عاذلٍ ورقيب . وولدت جوليا فتاةً سمتها روبرتين بالرغم عن والدها فظلّ قلق البال على طفلتهِ حتى مرّ على ولادتها ١٣ يوماً ثم ١٣ شهراً وفي آخر الشهر الثالث عشر ولدت جوليا غلاماً دعي وليم وهو اسم الرجل الذي ربّى روبرت وتبناهُ ووهبهُ تركتهُ على ما تقدم . وهكذا قضى الزوجان ايامهما في ذلك الفردوس الارضي وهما يحمدان الله تعالى على نعمتهِ حتى اذا ايقن روبرت ان الشقآء قد فارقهُ فراقاً لا رجوع بعدهُ حدث لهُ انهُ بينما كان ليلةً في غرفتهِ اتاهُ بستانيّ المنزل وقال لهُ ان شخصاً غريباً بالرواق يريد ان يكلمك على حدةٍ في امر ذي بال . فاسرع لمواجهة الشخص فرأى انهُ الكنت بلطازار عاشق جوليا فوقف لحظة لا يعيد ولا يبدي . فقال لهُ الكنت بلهجة المتهكم الساخر كيف حالك يا مستر روبرت ثرتين . فقال بخير وعافية والحمد لله ولكن قل لي من اين انت آتٍ وكيف عرفت منزلي . فاجاب اني قادم من نيويرك وقد ارشدني الى المنزل احد مستخدمي محل حميك . فارتعش روبرت وقال ولماذا ذهبت الى نيويرك . فتوقف الكنت هنيهةً ثم قال يا روبرت ثرتين انك بتزوجك الفتاة التي لم أهوَ غيرها من بنات الارض قد طعنتني في صميم فؤادي وقضيت على سعادتي وبغّضت اليّ الغنى والجاه فأردت ان اعرف من هو هذا الرجل الذي نغص عيشي وحرمني اعظم اماني وآمالي وقد عرفتهُ فهاك قصتهُ

في يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٢٤ وُجد على مسافة ميلين من نيويرك جثة امرأة في مقتبل الشباب مشنوقة في غصن شجرة وكان عند الصيرفي

طمسن خادم اسود فعرف المرأة من ملابسها لانها كانت في الليلة السابقة قد سلمت اليهِ طفلاً وسألتهُ ان يسلمهُ الى سيدهِ ليتولى تربيتهُ . اما هذه المرأة فتدعى سوسانة هتكنس وقد تزوَّج بها شابٌّ يدعى جورج كان لذلك العهد كاتباً في محل هريسون وبركلي وشركآئهما والظاهر ان سوسانة كانت مصابة باختلاطٍ في عقلها لكثرة ما كابدت من البؤس في طفوليتها ففي ذات يومٍ اصابتها نوبة جنون شديدة فبرحت نيويرك تاركةً زوجها في اشد حالات النكد والحزن وقد صرف المسكين بضعة اشهر وهو يبحث عنها ولما لم يجدها هجر البلاد الى فرنسا حيث كان المحل المذكور يريد ان ينشئ لهُ فرعاً . اما سوسانة فقد التقطها فلاح من ضواحي المدينة واخذها الى بيتهِ فولدت فيهِ الطفل الذي رباهُ وليم طمسن . واما جورج فانهُ تزوج بُعيد وصولهِ الى فرنسا لينفي الهموم التي اورثتهُ اياها زوجتهُ الاولى وبعد سنةٍ رُزق جورج ولنغام فتاةً دعاها جوليا

. . . . . .

فعند ذلك انقضَّ روبرت على الكنت وامسكهُ بخناقهِ وصاح بهِ انت كذاب منافق . فتملص منهُ بسكينةٍ وقال لهُ اذا كنت في ريبٍ مما قلت لك فاسأل ولنغام وخرج مسرعاً وهو يزأر كالاسد

فعاد روبرت الى غرفتهِ وهو يترنح كالسكران واستلقى على فراشهِ واغمض عينيهِ ثم نهض وانطلق الى غرفة زوجتهِ وكانت نائمة نوم الملَك وغدائرها مدلاَّة على كتفيها كانها كفافٌ من المسك لذلك الوجه المنير فانحنى فوقها وهو يعصر فؤادهُ ليقلل خفقانهُ وقبَّلها في جبينها ثم قبل ولديهِ

ودموعهُ تتساقط على الارض وعاد الى غرفتهِ وفتح خزانةً واخذ منها طبنجة وحشاها وجلس على مقعدٍ واسند رأسهُ بيديهِ وقال في نفسهِ كم اكون سعيداً لو كان هذا الرجل كاذباً . آه يا جوليا . يا روبرتين . يا وليم . كيف أتركـكم يا احبآئي يا ثالوث الجمال والطهـارة واللطف . ثم ضرب بيدهِ وقال لا . لا اموت قبل ان استجلي غوامض هذا السرّ فان ولنغام يطلعني على كل خفاياهُ اذا رويت لهُ ما حكاهُ الكنت

وفي تلك اللحظة سمع وقع حوافر على الطريق فهرول الى الباب فوجد رسولاً من بيت حميهِ يخبرهُ ان المستر ولنغام مات منذ ساعتين بسكتةٍ دماغية فدهش روبرت حين سماعهِ هذا الخبر وعاد الى مخدعهِ وقد يئس من الوقوف على حقيقة ذلك السر . وبينا هو كذلك وقد حار في امرهِ اذ ابتدأت الساعة تضرب فجعل يعدّ ضرباتهـا حتى اذا كانت شفعاً عدل عن قتل نفسهِ وان كانت وتراً فرّغ الطبنجة في دماغهِ . ومضت الساعة في ضربها حتى انتهت الى ١٢ فاستبشر وقد ايقن بكذب خبر الكنت وللحال قُرع الباب قرعةً شديدة فكانت تمام عدد ١٣ فتناول الطبنجة واطلقها على رأسهِ فخرّ قتيلاً يتشحط بدمهِ

فاستيقظت جوليا مذعورةً وأتت الى غرفة زوجها وانحنت فوقهُ تبكي بدمعٍ سخين ثم التفتت الى جانب السرير فرأت ورقة صغيرة عليهـا هذه العبارة « لقد قلت لكِ ان زواجي بكِ سيكون سبب شقآئكِ فلم تصدقيني . جوليا انتِ شقيقتي »